البقال (سين)

البَقَّالُ (سين)

قصص قصيرة وقصيرة جداً

حقي إسماعيل سلطان

اسم الكتاب: **البَقَّالُ (سين).**
صنف الكتاب: **مجموعة قصصية.**
اسم المؤلف: **حقي إسماعيل.**
سنة الطباعة: **٢٠٢٣م.**
تصميم الغلاف: **أحمد كلتكين**
الرقم الدولي: ٩٧٨-٩٩٢٢-٨٥٥٣-٢-٥
دار النشر: **الزمن للنشر والتوزيـع، كركوك، شارع الجمهورية، ٠٧٧٠٧٠٥٢٢٠٣.**

***

حقوق الطبع والترجمة والنشر والتوزيـع محفوظة، بموجب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية فقرة أو مقطع من الكتاب؛ دون إذن خطي من المؤلف والناشر معاً.

إهداء

إلى كُلِّ مَن أعجَبَه شيءٌ مِمَّا كتبْتُه.

تقديم

ثنائية الأدب والعِلم عند (حقي إسماعيل)

علي غدير

يقيناً إن فن الكتابة موهبة تمتاز بها نخبة من الناس، وقد لا ينتبه إليها البعض منهم أو ربما ينتبه ولا تتوفر لديه أسس رعايتها وتطويرها، أما الكوكبة التي تنتبه إليها وترعاها فسوف تتمكن من جعلها طوع أيديها عبر دراسة علومها وسبر أغوارها، ثم من خلال ممارستها وصقلها وتقويمها حتى تصبح مع الزمن مَلَكة مطواعة مِعطاء تخدم الذات والمجتمعات، وبضع نيازك من هذه الكوكبة يتسع أمامها أفق الإبداع، لتنطلق موهبتها في خدمة الإنسانية جمعاء؛ وتلك غاية كل أديب.

تُعتبَر القصة القصيرة جداً من أروع فنون الأدب، فهي لا تستغرق من القارئ إلا بضع ثوانٍ لتلاوتها، لكنها تحتاج منه ساعات كثيرة لقراءتها. وهنا أرجو الانتباه إلى أن التلاوة هي ترديد ما نجده مخطوطاً على ورقة دون أن

نمعن في معانيه، وهي قد تنفع مع أخبار الطقس وتذبذب أسعار العملة ونتائج مباريات كرة القدم، وكل ما لا يتطلب التفكير. أما القراءة فهي التمعن العميق في الكلمات، والبحث عن مدلولاتها الخفية، وهي ما يفتقر إليه الأغلبية، لكنها مع القصة القصيرة جداً، ضرورة مُلحَّة لا مناص عنها.

ثمة عوامل كثيرة تحكم كاتب القصة القصيرة جداً التي لا تتجاوز أحياناً سطراً أو بعض سطر، ومن تلك العوامل تكثيف الجمل ومفارقة المواقف والسخرية الهادفة والإدهاش المبهر، وضرورة توهُّج الخاتمة لتكون واخزة صادمة متناسقة مع العنوان، وتتوج كل هذه العوامل بأنسنة النص، أي بجعله جذوة تضيء للإنسان أينما كان.

منذ سنوات تعرفتُ على الأديب (حقي إسماعيل)، ولم أحظَ بلقاءٍ حي معه حتى اليوم؛ بسبب ظروف الحياة والعمل، لكننا على تواصل لا ينقطع، وهو يعرض عليّ الكثير من نتاجاته الأدبية، كالشِّعر العمودي الفصيح، والشعر الحر، والشعر العامي والقصص القصيرة جداً. ولا أذكر أنني قرأت له نتاجاً إلا وأثار في داخلي نشوة القراءة، تلك التي تسري في مفاصل الروح حين نقرأ شئياً مدهشاً يبهر الجوارح.

حزٌّ في نفسي أن تكون موهبة حقي إسماعيل غير معلنة، فالكثير من نتاجاته يستحق بجدارة نيل صفة الإبداع؛ لما تنطوي عليه من أبعاد إنسانية وصور فنية ضمن سياقات وقواعد الأعمال الأدبية المعتمدة. وحين علمت منه أنه (دكتور صيدلاني) أدركت الأسباب التي تقف وراء إحجامه عن الإبحار في عالم الأدب، فهو بلا شك ظل لحقبة زمنية طويلة متأرجحاً ما بين جانب عقله العلمي والجانب الأدبي المقابل، دون أن تكون له يد في حسم الأمر. فجانب من عقله يعمل بطريقة علمية حسابية دقيقة خلال ساعات الدوام الرسمي في الصيدلية، بينما يجاهد الجانب المقابل بين فينة وأخرى لرسم صور متخيلة وبناء نصوص أدبية، فيقطع حقي إسماعيل الساعات الطويلة ما بين المعرفة وما وراء المعرفة، وهذا يجهده أيُّما إجهاد، لاسيّما وأنه يعمل في وسط لا علاقة له بالأدب لا من قريب ولا من بعيد، فلا يجد تشجيعاً ولا إلهاماً ولا تصبيراً إلا ما ندر. وبالرغم من كل هذه المنغصات استطاع هذا الأديب الصاعد أن يقدم لنا مجموعة قصصية ما بين القصيرة والقصيرة جداً، وها هي بين أيديكم ثماراً يانعة، توحي بولادة أديب سيكون له شأنٌ كبير في عالم الأدب، إذا ما واظب على صقل موهبته وتقويم أسلوبه وإرهاف حسه وتنويع مواضيعه. آملاً له التوفيق، والحظ الواعد من الله تعالى.

- ١ -

تخمة من فراغ

لأولى مرة هذا الصباح أشعر بالغثيان والتخمة من صوتها الذي بدا نشازاً مزعجاً! تنتابني أعراضٌ غريبة، لا أعلم لها أسباباً سوى أنها بدأتْ مع تشغيل مذياع المركبة المتجهة بي إلى مكان العمل.

ظل صوتُها يصدحُ أغلبَ الوقت دون فواصل، وأنا أشعر بغثيانٍ وانزعاجٍ، ولكن لماذا؟! لمْ أعلم ما السبب، أ هو المللُ من التكرار؟ أم هو الروتين الذي يقضي بأن تستمع إليها كل صباح؛ وكأنها جزء من طقوسٍ يومية؟ أم أنَّ الصباح لن يكتمل ويحلو من دونها؟ وكأنها لقمةٌ يجبُ أن تلتهمها، أو رشفة شاي لا بُدَّ من أن ترتشفها.

(أغاني الصباح)، من وضع هذه التسمية؟ ولماذا تذاع في الصباح تحديداً؟

بالطبع أنا لا ألوم سائقَ المركبة الذي شَغَّل لنا المذياع، بل ألوم نفسي الواهمة التي تقول:

أطيرُ إذا طيورُ السربِ طارتْ - - - ولكنْ لا أغرِّدُ كيفَ شاءتْ

الملفتُ أنَّ هذهِ الأعراض لم تختفِ إلا بعد إطفاء المذياع الذي راح ينقلُ صوتَ مذيعٍ ينصبُ (الفاعلَ) ويرفعُ (المفعولَ به) عند قراءته نشرة الأخبار، أو صوتاً أنثوياً يتغنجُ مُعلناً عن مركزٍ للمساجِ أو مشفى للتجميل!

قبل وصولي مكان العمل بأمتار فوجئتُ بجمعٍ من الناس أغلقوا الطريق، وهم يدبكون ويرقصون على إيقاع أغنية مطربٍ مشهورٍ.

نزلتُ من المركبة وقد أصابني من الدوار والغثيان والضيق ما أصابني؛ فتقيأتُ كلَّ ما سمعته على قارعة الطريق.

- ٢ -

البقال (سين)

اعتاد أن يستيقظ كلَّ يومٍ قبل إشراقة الشمس، يغسلُ وجههُ برحيقِ الورودِ ليُخفي ذلك الدرن القديم، يتناول طعامه المفضَّل المُعَدَّ من أمخاخ الخراف، يرتدي زِيَّهُ الأنيق ثم يُلقي نظرةً أخيرةً على وجههِ الذي يبدو في المرآة وكأنه ثلاثة وجوه مختلفة.

يرتبُ هندامهُ ويخرج متفائلاً، متجهاً إلى دكَّانهِ ليبيعَ سِلَعَهُ.

يفتحُ بابَ الدُّكَّان ذي القفلِ الكبيرِ، ثم يبدأ بإخراجِ علبِ الحليبِ والقشطة وقطع الجبن وصناديقَ الفواكهِ والخضارِ، ليضعها على المصطبةِ الخشبية أمام الدكان.

لا تزال تلك عادته.

مدَّ بصرهُ نحو الشارع الذي ما زال يُعسعِس ببقايا سكون الليل، لمح أحد الزبائن قادماً من بعيدٍ، فرح بقدومه وهتف:

- أهلاً بالسيد أرنب... أهلاً أهلاً.

ابتسم الأرنبُ وهو يقترب:

- صباح الخير سيد (سين).

ردَّ البقالُ بابتسامةٍ مغلَّفةٍ بخبث:

- صباح الخير سيد (أرنب)... آه لو تعلمُ كم يُسعدني مجيئك... كيف لي أن أخدمك؟

أجاب الأرنب:

- كيلو من الجزر لو سمحت.

ناولهُ البقال كيساً كبيراً من الجزر وأخذ منهُ ثمن كيلوغرام واحد فقط، ذهب الأرنبُ فرِحاً وهو يحملُ كيس الجزر بصعوبة بالغة.

ما زال البقال سين كعادته يبيع الفواكه الطازجة بأرخص الأسعار، كل بضائعه ذات جودة عالية وأثمانها رخيصة جداً!

جلس على الكرسيِّ خلف المصطبة يراقبُ الشارع كصيادٍ ينتظر طريدته، نعم كان ينتظر طريدة أخرى، وهو يشعرُ بأنْ ثَمَّ ما يقلقهُ، بل يخيفهُ؛ من ردة فعلهم إذا اكتشفوا السر.

- ٣ -

چات

هو: **أوو... كم (أنتي) جميلة! تبدين رائعة بهذا الفستان.**

هي؛ بسخرية: **هههههه.**

هو: **هههههه... ممَ تضحكين؟**

هي؛ بامتعاض: **منك.**

هو؛ باستغراب: **مني؟! ولماذا؟**

هي: **هذه ليست صورتي الحقيقية، بل صورة وهمية.**

هو؛ بإصرار: **ولكنها تُشبهك.**

هي؛ باستياء: **وهل تعرفني؟**

هو: **كلا.**

هي؛ بغضب: **إذاً... تَعَلَّمْ كيف تكتب.**

هي؛ بتدارك: **خطأ مطبعي... أقصد كيف (تكذب).**

هو؛ بخبث: **ولكنك في الحقيقة أجملُ منها بكثير، والدليلُ كتاباتك الجميلة والرائعة في فيسبوك.**

هي؛ بابتسامة: **شكراً لك... إنك تبالغ.**

هو؛ بتملق: **لا... أنا لا أبالغ... أنت جميلة فعلاً... هذا رأيي بكل صراحة!**

هي؛ بحياء: **أرجوك لا تقلْ هذا، فأنا خجولة جداً.**

هو؛ بانتهاز: **وهذا ما يزيدكِ جمالاً وعفةً وروعةً... أنا معجب بك حقاً.**

هي؛ بغبطة: **أشكرك يا أستاذ.**

هو؛ بانتشاء: **أرجوكِ... لا تناديني (أستاذ)، بل باسمي المجرد.**

هي؛ بغنج: **أوكيه.**

هو؛ باهتياج: **أحبك.**

هي؛ بامتعاض واحتقار وهيجان: **حبتك حية!**

- ٤ -

بياض الثلج والأقزام السبعة

كادتْ شمسُ الربيع تُذيب (بياض الثلج)، لو لا أنها احتمتْ بظلٍّ شجرة، ولو لا مجيء سائقها الخاص الذي تأخَّرَ رُبع دقيقة عن موعده المطلوب؛ ما حدا بها إلى أن توبِّخهُ بشدة وتنعتهُ بـ(الحمار السائب) كعادتها، كُلما تأخر قليلاً.

ركبتْ في المقعد الخلفي قبلَ أن تنطلق المركبة بسرعة البرق، لمحتْ عبر النافذة أقزاماً سبعة يبحثون عن شيءٍ ما في مكبِّ نفايات، قالت للسائق:

- خفف السرعة.

انصاع لأمرها:

- حاضر يا آنستي.

تأملتْ أولئك الأقزام، سألته بسخرية:

- هل تعرف هؤلاء الأغبياء؟

أجاب باحترام:

- لا يا آنستي؟

- هؤلاء هم الأقزام السبعة الأغبياء.

ضحكت بصخب وهي تُتِمُّ:

- إنهم فقراء الآن لأنهم أغبياء، الغباء جعلهم يبحثون عن بقايا الخبز في القمامة، أما أنا فقد أكلتُ التفاحة المسحورة.

- ٥ -

الدخان الكثيف

أتمدَّدُ الآنَ كغزالٍ جريحٍ لم يستطعْ اللحاق بركبِ القطيع، الآلامُ تغزو كلَّ خليةٍ من جسمي؛ كأنني أصارعُ الموتَ. وثمة آهات لا تزالُ جاثمةً على صدري تأبى الرحيل.

لا شيء يُخفِّفُ ذلك الألم أو يزيح هذا العبء الذي لا زلتُ (حاملاً) به منذ أن تنفستُ أولى شهقةٍ منَ الدخانِ الكثيفِ، وللأسف؛ فلم يحنْ موعدُ الولادة بعد.

حاولتُ رسمَ بصيصٍ من التفاؤلِ في جوفِ الليل القاتم فلَمْ أفلح، لأنَّ النفسَ التي اعتادتْ أنْ ترى السوادَ في كلِّ نهارٍ لا يمكنُها تصنُّع الارتياح واللامبالاة في ليلة شتائية حالكة مخيفة كهذه، أو أنْ تختلسَ منها حُلماً جميلاً، ولو لِلحظات.

هذه الليلة التي امتنع حتى القمرُ من زيارتها والمرور عليها مرورَ الكرام، تذكرتُ ما قالهُ لي ذاتَ يومٍ عندما سألتهُ عن سبب استعجالهِ الرحيل:

- إنَّ النورَ والظلام لا يجتمعان.

ردَدْتُ متسائلاً:

- ولكن، ألا يولد أحدُهما من رحم الآخر؟

أجابَ مُتمتماً:

- بلى ولكن...

هتفتُ:

- ولكن ماذا؟

أجابني وقد ابتسم، فازداد وجهه البريء سطوعاً وإشراقاً:

- الاختلافُ يا صديقي.

صمتَ برهةً ثمَّ أوضح:

- نختلفُ في وجهات نظرنا وآرائنا واهتماماتنا، برغم هذا فنحن أصدقاء.

- أ تقصدُ أنكّ تحاولُ تجنُّبَ النِّقاش مع أصدقائك؟

هزَّ رأسهُ موافقاً:

- نعم، حتى لا يطغى الخلافُ على صداقتنا.

ابتسمت مُعّلِّقاً:

- "إبعد عن أخوك يحبك".

- هذا صحيح.

نظرّ في ساعته ثم تمتم مرتبكاً:

- أوه... آسف يا صديقي، يجبُ أن أرحل.

حيَّيتُهُ مودعاً:

- كما تحبُّ... إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

قالها وهو يشقُّ طريقهُ مُبتعداً عن أنظاري، أما الآن فقد ازدادَ وجعي ولا أحد يؤنسني، ولكنْ ما هذا الضوءُ الساطعُ؟ إنه يهبطُ سريعاً منْ أعلى، هل تذكَّرَني القمرُ وعاد يسألُ عني؟! هل اشتاق إلي صديقي؟

الضوءُ الهائلُ يقتربُ من الأرض أكثر فأكثر، أوه... إنهُ ليسَ القمر فهذا ليس وجههُ؟

يا إلهي... شيءٌ مُخيفٌ!

أحاول الهروب مُتَعثِّراً

أركض بجنب الحائط

يهبط شعاعُ الضوء مسرعاً مارَّاً من فوقي بأمتار

يهوي على أحد المنازل

يا إلهي... انفجار... انفجارٌ هائلٌ... ونارٌ تشبُّ في بقايا المنزل المنكوب! يتجمهرُ أهلُ الحيِّ، يحاولون فعل شيءٍ ما... صُراخٌ وعويلٌ في كلِّ مكان.. ودخانٌ كثيفٌ يتنفَّسهُ الأطفال!

- ٦ -

رسالة وداع

استل قلمه بحزن، سحب ورقة فارغة من دفتر يومياته، أطلَّ برأسهِ من النافذة نحو الطيور المهاجرة، وحينَ رآها، لم يستطع أنْ يمنع دمعةً حارقةً من الانصباب على خدِّهِ قبلَ أن تسقط على الورقة.

زفَرَ زفرةً طويلةً وشرعَ يكتبُ:

لا زلت أتذكَّرُكِ فأبكي...

تلفُّني الأوجاع وتفترسني الذكريات...

الأنينُ بداخلي لم ينطفئ بعد

وسفنُ الأحزان لم تبحر... لا تزال جاثمةً على صدري كأنها تأبى الرحيل، فمنذ طفولتي وهي ترسو عند شغاف قلبي

كأننا وُلدنا معاً كتوأمين سياميَّين...

صباحاً أذهبُ للعمل، أمَّا وقت العصر فأمشي برفقة صديقي، نتجاذبُ أطرافَ الحديث حتى ينقضي

النهار، ثم أنامُ مبكِّراً علَّني أنساك، بَيْد أن صوت الانفجارات والقنابل يمنعني عن ذلك!

في الصباح يهدأ كلُّ شيءٍ...

عندما أمشي مع صديقي أشعرُ بأنَّهُ يُحاولُ إخراجي من عتمة الكآبة التي أعيشُها.

غالباً ما يبدأ كلامه معي:

- هل سمعتَ بآخر نكتة؟

أجيبه كعادتي:

- كلا.

أحياناً يسرد النكتة وأنا شارد الذهن، أفكرُ فيكَ بحزني عليكَ وشوقي إليكَ.

تمرُّ ببالي صورتك الجميلة، تعانقني ثم تودعني كأنكَ لن تعود، أمسك بيدكَ بقوة قائلاً:

- أرجوك لا تذهبْ وتتركنا.

تطالعُني بتلك الثقة المرسومة بابتسامة:

- سأعودُ إن شاء الله.

أصحو على قهقهة صديقي وهو يقول:

- أ لم تعجبك النكتة؟

أردُّ بلا مبالاة:

- بلى.

لا زلتُ أفكر فيك... وأحلم بك... ولن أستطيع العيش بدونك... فمن الصعب جداً العيش بلا وطن!

- ٧ -

شاعر مجهول

بعد أن انتهى من إلقاء قصيدته، صفَّق لهُ الحضورُ بحرارةٍ كحرارةِ شمس تموز المشرعة بالأفول. كان إلقاؤه مؤثِّراً، إذ نهض جميع الحاضرين احتراماً له. أراد بعضهم مصافحته بشدة، بيد أنهُ خرجَ مُسرعاً من الحفلِ فورَ انتهائه.

بدا على عجلةٍ من أمرِهِ كأنَّ لديهِ موعداً مُهماً، فقد انطلقَ دون أنْ يأبهَ لهُتافِ الجمهور ووسائل الإعلام، ذهبوا خلفهُ بحثاً عنهُ فلم يجدوه!

فتشوا عن اسمه في قائمة المدعوين، فلم يجدوا ما يدلُّ عليه، أصبحوا في حيرةٍ من أمرهم، فمن يكون يا تُرى هذا الشاعر المجهول؟

راجعوا كلمات قصيدته فاستوقفهم هذا البيت:

سأمضي وتمضي معي ذكرياتٌ - - - وأنتم جلوسٌ، فهل تدركون؟!

- ٨ -
مكالمة فائتة

في ذلك المساء، ظلت جالسةً أمام المرآة لأكثرَ من ساعةٍ، مرتديةً فستانها الأحمرَ، متزيِّنةً لزوجها القادم من عمله بعد أن تأخر قليلاً عن موعدهِ المُعتاد.

انتظرَتهُ بفارغ الصبر لتفاجئهُ بهدية اشترتها له، أطفأتِ النورَ، أبقت التلفازَ شغالاً وأشعلت عدَّةَ شموعٍ في صالةِ الاستقبال وفي غرفة النوم، حيث وضعتْ أزهاراً رائعةً وكعكةً كُتبَ عليها (عيدُ ميلادٍ سعيداً).

تعطَّرتْ بعطرٍ شبيه برائحةِ النرجس، نظرت إلى ساعتها التي أشارت إلى التاسعة، رفعتْ هاتفها النقال لتتصل به وتقول فيما لو أجابها:

- آلو حبيبي... لماذا تأخرت؟

رنَّ الهاتفُ لكنَّ زوجها لا يجيبُ! أعادت الاتصال دون جدوى.

"لماذا لا يرد؟" تمتمتْ، شعرتْ بشيءٍ من الضجر والقلقِ الذي حاولتْ تجاهلهُ بالنظرِ صوبَ التلفاز، عندها رنَّ هاتفُها النقال، يا لسعادتها! إنه يتصل!

خفقَ قلبها... ردَّتْ بلهفةٍ:

- آلو حبيبي...

- عذراً سيدتي أنا لستُ زوجكِ، أنا من شُرطة المُرور، يؤسفني إبلاغك أنَّ زوجك قد توفي بحادث مروري!

- ٩ -
زكام

ألم حلقي وانسداد أنفي وجفاف فموي، مع الإحساس بحكة طفيفة مزعجة في الأنف والفم؛ هو ما جعلني أستيقظ كل دقيقة لأبلل فمي بالماء، وأبقى جالساً قليلاً، وأمرر نشوق (المَنَتول) على أنفي ليستيقظ هو الآخر.

شعرت بالملل، غيرتُ مكان نومي، جرَّبتُ النوم على وسادتين، تقلبت يميناً وشمالاً. لم أشعر بالارتياح، فتَّشتُ في خزانة أدوية المنزل عن شيء يريحني مؤقتاً. قرأتُ على إحدى العلب الصغيرة عبارة (أقراص فوارة مخففة لأعراض الزكام) أخذت قرصاً، جلبتُ قدح ماء، وضعتُ القرص في القدح؛ حينها سمعتُ صوتاً يصيحُ:

- النجدة... أنقذوني... أنقذوني!

كان الصوتُ قريباً لكنه منخفض، بدا كأنه يصدرُ من قدح الماء أمامي. نعم كان الصوت من هناك! أصابني الفزع والدهشة، صحتُ مرعوباً:

- من الذي يتكلم؟

أجابني ذلك الصوت:

- سيدي لا تخف مني أنا قرصُ الدواء... أرجوك أنقذني... لا أجيد السباحة، سوف أغرق!

انتشلته فوراً، وضعته على الأرض قال وقد تنفس الصُعَداء:

- شكراً يا سيدي... لقد أنقذتني.

قلتُ ممازحاً:

- لكنني أنا من وضعتك في الماء.

استطردت أسأله:

- لِمَ تخشى الماء؟ أليس من واجبك أن تذوب فيه وأن تذهب إلى المعدة؟ أ ليس من واجبك معالجة المرض؟

أجابني متحسراً:

- من المفترض أن يكون هذا واجبي، لكنَّ الشركة التي صنعتني تعلم أنني لا أستطيع ذلك.

قلتُ مستغرباً:

- ماذا تقصد؟!

ردَّ متأسفاً:

- أنا بصراحةٍ خالٍ من أيَّةِ مادة دوائية... لدي فقط شكل الدواء ومظهره.

قلتُ وأنا أتأمله بتمعن:

- هكذا إذاً.. فهمتك الآن.

انتظرته ليجف، ثم أعدته إلى علبته في خزانة الأدوية.

- ١٠ -

لوحة

حسبما كنت تظن بأن تلك اللوحة لوحة رائعة، بل أنها أجمل لوحة في العالم، وأنك نادم وحزين جداً لعدم استطاعتك شراءها في ذلك الوقت. أتذكر قولك دائماً عندما نقرر الذهاب إلى معرض للرسم، أو عندما يكون الحديث عن الرسم: "**تلك اللوحة في المعرض الفلاني... في العام الفائت هي الأفضل على الإطلاق**". هذا ماكنت تقوله، وغالباً ما تصفها بـ(المثالية). ولم تفلح نقاشاتي ومحاولاتي معك لإقناعك بأنها لوحة عادية، وأنه ليس هناك داع للحزن أو الندم. وفي مرة من المرات، عندما كنتَ عائداً من عملك تسير في السوق على الرصيف، إذا بمجموعة من عشاق تلك اللوحة، ومن ضمنهم ذلك الرجل الذي اشتراها، وإذا بكل هؤلاء... نعم كلهم... يدوسونها ويركلونها بأقدامهم ويشتمون من رسمها!

- ١١ -
خضيِّر

مَن يرى الحادثة لن يصدقها! فكيف بالذي يسمع عنها من شخص آخر، حتى لو كان أهلاً للثقة والصدق؟ فما سمعته اليوم من صديقي اعتبرتهُ حكاية عجيبة، تفوق حكايات ألف ليلة وليلة غرابة وعجباً! وإنني لا أشك أبداً فيما يقوله لي، بل أحسن الظن فيه، وأثق به أشد الثقة لسببين؛ الأول إنه صديقي المقرب والمفضل برغم فارق العمر بيننا، فهو يكبرني بعشر سنوات، والثاني حُسْن سلوكه وطيبة قلبه ولطف تعامله مع جميع الناس على حد سواء.

يبقى أن لكل إنسان سلبياته وإيجابياته، وإحدى سلبيات صديقي أنه مهمل وكسول، والأخرى أنه يُسرف في صرف النقود، بَيْد أنه لا يبخل بشيء على سائل أو محتاج.

بعد أن جلس على الكرسي الخشبي أمامي في صيدلية المستشفى، قال لي ببشاشة طالما احتفظ بها وجهه:

- أعتقد أن نصف المرضى هنا ليسوا بمرضى.

سألته باستغراب:

- ماذا تقصد؟

أجابني بابتسامة عريضة:

- أقصد أن أمراضهم نفسية وليست جسدية.

ضحكتُ وأنا أردُّ مازحاً:

- لهذا هم مُزعجون أحياناً!

لاحظتُ انقباض أساريره وهو يتأوه قائلاً:

- كما تعلم يا أخي، إنَّ الحرب الأخيرة كانت أعظم كارثة بالنسبة لنا، فقد نتج عنها ما نتج من قتل ودمار وخوف وفقر وبطالة.

قلتُ مواسياً بعدما شعرتُ أن مزحتي ليست في محلها:

- إنه ابتلاء من الله تعالى، علينا أن نصبر.

ردَّد بصوت مشوب بالأسى:

- الحمد لله على كل حال.

- الحمد لله.

اتجهت نحو شباك الصيدلية، حينما نقرتْ عليه يد مرتعشة لرجل عجوز شاحب الوجه، أخذتُ منه بطاقة العلاج، انصرف وهو يدعو لي بالتوفيق بعد أن أعطيته دواءه وأوضحت له طريقة استعماله.

بادرني صديقي (صابر) قائلاً:

- تذكرت الآن حادثة حصلتْ قبل عشرين عاماً أريد أن أخبرك بها.

جلستُ أمعن النظر في وجهه الذي عاودته البشاشة، قلتُ مصغياً:

- نعم... تفضل.

شرع حديثَه بقوله:

- في يوم من أيام الشتاء الباردة، كنت عائداً من المدرسة، أسير بخطوات حذرة خشية الانزلاق على رصيف الشارع المثقل بالأوحال ومياه المطر، وقبل وصولي إلى الفرع المؤدي إلى بيتنا...

رنَّ هاتفه النقال، اضطررتُ لانتظار إنهاء مكالمته الهاتفية، قبل أن يواصل حديثه قائلاً:

- كما قلتُ... قبل أن أصل إلى الفرع المؤدي إلى بيتنا جاءتْ حافلة نقل عمال الشركة اليابانية - التي

كانت تشيِّد محطات للكهرباء آنذاك - مسرعة لتصطدم بدراجة هوائية عند تقاطع شارعين، وتدهس بعجلاتها الضخمة رأس راكب الدراجة.

قاطعته بانفعال وعفوية:

- يا ساتر! هل مات؟

تابع كلامه بهدوء دون أن يكترث لانفعالي:

- منظر بشع فعلاً، أصبتُ بالذعر، شعرتُ برغبة شديدة في تقيؤ معدتي وأمعائي وأنا أشاهد ما يجري على مقربة مني، رأيت الناس فزعين يهرولون باتجاه الصبي المدهوس، اقتربتُ من الحادث أكثر لأرى من هو الضحية، وإذا بي أفاجأ بأنَّ المدهوس هو (خضيِّر) ابن جارنا (سلام)! وهو يكبرني بأربع سنوات لكنه متخلفٌ عقلياً. وما زاد ذعري ورغبتي في التقيؤ هو أن عظم جمجمته قد انفصل عن بقية رأسه بشكل دائري أشبه بالقبعة، إذ يبدو أن حافة الحلقة الحديدية البارزة من العتلة التي يثبت عليها إطار المركبة هي التي ضغطت على رأسه وقطعت جمجمته بهذا الشكل الدائري المنتظم.

في هذه اللحظة كادتْ أن تنزلق من لساني جملة طائشة قد يحسبها صابر استهزاءً أو سخرية، فآثرت

الصمت استناداً إلى المثل الذي أتقمصه (إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب).

تابع صابر حديثه قائلاً:

- أسرعَ الشباب والرجالُ ممن كانوا في الشارع نحو خضير الذي بان جزء من دماغه الطري وقد تلطخ بشيء من الوحل؛ ما جعل أحدهم يمسحه بيده المرتجفة لينظفه ثم يدخله إلى مكانه كيفما اتفق! ويغطيه بعظمة الرأس الدائرية، قبل أن يلفوه ببطانية وينقلونه إلى المستشفى بأقصى سرعة. أما سائق الحافلة فقد كان مذعوراً لا يصدِّق ما حدث، وقد أصابته نوبة هستيرية جعلته يصرخ وهو ينطح مقود المركبة برأسه تارة، ويضرب وجهه بيديه تارة أخرى، كان يبكي وهو يتمتم بكلمات يابانية غير مفهومة.

صمتَ صابر لبرهة وكأنه ينتظر مني تكرار سؤالي البديهي: "**هل مات خضير أم لا؟**"، غير أنني عزمتُ على ألا أقاطعه حتى النهاية.

واصل صابر كلامه:

- أ تدري؟ كان أهله يفضلون موته ذلك اليوم على أن يبقى على قيد الحياة، وهو في أحسن أحواله متخلفٌ عقلياً. القلق والترقب افترسا قلوبهم وهم

ينتظرون تقرير الطب العدلي بفارغ الصبر؛ أملاً في أن يُزفَّ لهم خبر وفاته، فقد رأوا أن في موته رحمة له وراحة كبيرة لهم. وحالما خرج الطبيب من الردهة، هبَّ الجميعُ نحوه ليسألوه، وما أن رآهم حتى قطع عليهم كل سؤال، حينها هتف وهو يمسح العرق عن وجهه: "اطمئنوا لا زال على قيد الحياة، لكنه في غيبوبة ولا نعلم كم ستستمر"، ثم التفت نحو (أبي خضير) وهمس في أذنه: "كما أننا لا نعلم هل سيبقى حياً؟ أم لا؟". واستمرتْ غيبوبته ستة أشهر، تكفَّلتْ خلالها الشركة اليابانية بنفقات العلاج كافة، إضافة إلى تعويض مادي دفعته لعائلة خضيِّر الفقيرة، وحينما أفاق لم يكن كعادته، بل بدا مختلفاً، لقد كان أكثر ذكاءً وأرجحَ عقلاً من ذي قبل!

- ١٢ -
الدرس الأول

هكذا انتهى العام الدراسي الأخير لي في (كلية الصيدلة)، وها أنا ذا قد حزمتُ أغراضي وركبتُ مركبة الأجرة، متوجهاً صوب منطقتي الريفية الواقعة على ضفاف نهر دجلة، هنالك حيثُ الهواء الطلقُ، والمناظرُ الخلابة، والهدوء العذب. حيثُ يلتقي نهرُ الزاب الصغير مع دجلة الخالد، فيتعانقان بحبٍّ وصفاء عناق الأم لولدها. وحيث تنام سنابل القمح الملأى، غارقةً في أحلامها الخُضْر.

أخيراً سأستمتع بقسط من الراحة، وعطلة صيفية آمل أن تكون سعيدة نسبياً، وسأوفر لنفسي المتعَبة شيئاً من الترفيه والراحة. فقد آن الأوان كي أرتاح من عبء الامتحانات التي أدَّيتُها بشق الأنفس، في ظروف شبه صحراوية، فالجو حارٌّ وجافٌّ والكهرباء تأتي برهة ثم تنقطع ساعات، والماء شبه منعدم، ناهيك عن كثرة المحاضرات وصعوبة الأسئلة التي يتفنن العديد من أساتذتي المحترمين بتعقيدها وتركيزها وتنضيدها.

المهم أنني سأرتاح قليلاً برغم صعوبة الفراق، فقد ودَّعت اليوم أغلى من عرفتهم وعشت معهم واستأنست بصحبتهم.

نعم إنهم الذين عشتُ معهم خمس سنوات من عمري بالمحبة والإخاء والمودة، هم الذين زرعوا بذور الفرح على شواطئ الأحزان، ودخلوا القلب دون استئذان. الذين قضيتُ معهم أيامي الجامعية بحلوها ومرها، أفراحها وأحزانها، سرورها ومآسيها.

جلستُ في المقعد الخلفي للمركبة وأنا أتخيل كل تلك الوجوه الطيبة، وجوه أحبابي وإخواني الذين تمنيت أن لا أفارقهم أبداً. أحسستُ أنَّ عينيَّ ما زالتا تدمعان إلى هذه اللحظة، ربما بسبب الحساسية التي ورثتها، أو بسبب بكائي لحظة توديعي لأصدقائي... آه لكَم بكيتُ حزناً على وداعهم، وكأنني لن أراهم مرة أخرى، وأن الأعوام التي قضيتها بصحبتهم لن تعود.

فعلاً، فهنالك لحظات رائعة تمر في حياتنا لا يمكن أن تعود، لكنها تتراقص في دواخلنا كلما هبَّ نسيم الذكريات.

إنها لحظات ذهبية منقوشة في ذاكرتنا لتكون محطات لنا، نقف عندها فنستذكر تلك الأشياء الجميلة في حياتنا، هي الأطلال التي نَظَم فيها الشعراء قصائدهم.

وبينما كنتُ أنظر إلى أسوار الجامعة، التي ودعتني هي الأخرى بحرارة استمدتها من خيوط الشمس العمودية، مرَّ أمامي شريط من الذكريات، ذكريات بدت وكأنها سمفونية طويلة عزفتها مخيلتي المشوشة بالكثير من الأفكار.

ها أنا الآن أتذكر أول يوم دخلت فيه المدرسة الابتدائية، كنتُ حينها أرتدي قميصاً صيفياً ورديَّ اللون وبنطالاً وحذاءً أسودين. وأذكر أنني، لشدة غبطتي وابتهاجي، لم أتناول إفطاري يومها؛ لو لا إلحاح أهلي عليَّ.

سرتُ مع أولاد عمي الثلاثة، كانوا يكبرونني بسنتين فأكثر. حثثتُ الخطى مسرعاً وفي قلبي الصغير غبطة لا توصَف وفرحة طفولية طغت على مشاعري كلها، على عكس أولاد عمي الذين بانت على وجوههم علامات اللامبالاة، بل كانت علامات الاشمئزاز واضحة عليهم، ولم أدرك السبب.

سرتُ معهم فكنتُ أسبقهم أحياناً دون أن أشعر بذلك، لينادي علي أكبر أولاد عمي:

- لا تسرع؛ فأنت لا تعرف الطريق.

لم يكن هاجسي في ذلك الوقت وما سبقه من أيام طفولتي سوى اللهو واللعب، لذلك كنت سعيداً أشدَّ السعادة عند ذهابي إلى المدرسة في ذلك اليوم، فقد

أخبرني بعض الأولاد ممن يكبرونني سناً أن المدرسة عبارة عن مدينة ألعاب يرومها الأطفال ليلهوا ويلعبوا دون أجر أو حساب. وكذلك أخبرني أولاد عمي الثلاثة، فتكونت لدي هذه الفكرة عن المدرسة التي حلمتُ بلقائها؛ وقد آن الأوان!

وصلنا مبنى كبير المساحة يفوق مساحة بيتنا عدة مرات، يحيط به جدار على طول محيطه، أذهلني بابه الأخضر ذو المصراعين وقد لُفَّت عليه سلسلة مغلقة بقفل حديدي، كما لاحظتُ بعض الرسوم والنقوش والكتابات التي أوحتْ كأنها إعلانات أو دعاية عما في داخل هذا المبنى من ألعاب وترفيه، أو شيء من هذا القبيل.

قلتُ متلهفا وقد تملكني السرور:

- متى يبدأ الدوام؟ أريد رؤية مدينة الألعاب.

أجابني أكبر أبناء عمي بابتسامة ساخرة:

- لقد وصلنا مبكرين جداً، لكن لا بأس، ستفتح مدينة الألعاب أبوابها لك بعد قليل.

انفجر الثلاثة ضاحكين! كان محقاً حين قال إننا وصلنا مبكرين، فقد كنا أول الوافدين ولم نرَ أحداً قرب المدرسة، وبعد دقائق بدأ الصغار يتوافدون ويزدادون

شيئاً فشيئاً، وهم يقفون خارج المبنى بانتظار من يفتح لهم الباب ويسمح لهم بالدخول.

انتظرتُ ساعة أو أكثر منذ وصولي، وأنا أحاول أن أبقى قريباً من أولاد عمي كي لا أضيع وسط حشد الصغار أمثالي الذين كانوا يبدون من بعيد كأنهم مستعمرة نمل!

سمعتُ أصغر أولاد عمي يقول:

- ها قد جاء المعلم.

نظرتُ صوب ما كان ينظرُ أولاد عمي، رأيتُ شخصين يقتربان من باب المدرسة، تبين لي أن أحدهما المعلم والآخر الفرَّاش، وذلك من خلال الزي الذي كان يرتديه كل منهما.

اقتربا من الباب، وبينما هَمَّ الفرَّاش بفتح الباب الكبير تملكني فرح شديد وسعادة لا توصف، فبعد كل هذا الانتظار سأرى مدينة الألعاب، سأركب القطار الذي يسير على السكة الدائرية، سأركب الدولاب الطيار، سأركب المركبة الصغيرة أو الأرجوحة أو الدراجة الهوائية التي طالما أمَّلني والدي بشرائها لي.

تزاحمتْ تلك الهواجس في مخيلتي، وهي كل ما كان يشغل تفكيري تلك اللحظة، وأمِلْتُ أن أجد ألعاباً أخرى، ألعاباً أتخيلها وأحلم بها، لكنني لا أعرف أسماءها!

سيُفتح الباب إذاً وتتحقق كل أحلامي، أخيراً انفتح البابُ والتفتَ المعلم نحو جموع الأطفال المتجمهرين منبها:

- هيا يا أولاد أدخلوا بهدوء، لا تثيروا أية جلبة.

قال هذا وتنحى جانباً فاسحاً المجال لهم بالدخول عندها اندفع حشدُ الصغار بقوةٍ نحو الباب، فحشرتُ جسمي وسط السيل العارم الذي كوَّنه الأولاد وهم يطلقون هتافات الفرح غير آبهين لما قاله لهم المعلم، ومع انسياب هذا التيار البشري الهائل عبرتُ الباب! ودخلتُ المدرسة لأولى مرة.

نعم كانت تلك أولى مرة تطأ فيها قدمي أرض المدرسة، وأنا أنظر بعشوائية في كل الاتجاهات كمن يبحثُ عن شيءٍ في فضاء واسع. نعم فأنا أبحث عن مدينة الألعاب، عن المركبة، عن الأرجوحة، فهذا ما جئتُ من أجله. ولكن يا لخيبتي، فلم أرَ مدينة الألعاب المزعومة، أصِبْتُ بالدهشة والخيبة والذهول وقلت في نفسي: "**إذا لم تكن هنا مدينة الألعاب فأين تكون يا تُرى؟**".

صدمتُ بالواقع فلم أرَ سوى ساحة واسعة نَمَتْ على محيطها بعض الأشجار، كما كان هناك العديد من صنابير المياه في إحدى زوايا ساحة المدرسة، فيما بُنيتْ

غرف متلاصقة متشابهة على جانبي الساحة، أخبروني أنها تسمى (الصفوف)، وقد وجدتها فعلاً، لكنهم أخبروني عن مدينة الألعاب فما لي لا أجدها الآن؟!

بينما كنت أعيش حالةً الصدمة والذهول والحزن والدهشة دقَّ جرسُ المدرسة معلناً بِدءَ أول يوم في حياتي المدرسية، حينها رأيتُ الأطفال يهرولون باتجاهات عشوائية وكأنهم في حالة إنذار، فيما بقيتُ أنا واقفاً دون حراك لا أشعرُ بشيء سوى الحزن والحسرة. ودون أن أنتبه جاء أحدهم راكضاً نحوي ليصدمني بقوة قبل أن يدخل في غرفة الصف خاصته.

سقطتُ أرضاً وغبت عن الوعي قليلاً، ثم أحسستُ بيد تهزني من كتفي بشدة وسمعت صوت أحدهم يقول: **"استيقظ... استيقظ يا رجل"**!

استيقظتُ على إثر ذلك فزعاً، لأرى سائق المركبة وهو يقول لي بنبرة أكثر لطفاً:

- كفاك نوماً يا أخي لقد وصلنا البيت!

- ١٣ -

الإعصار

جلستْ لوحدها في حجرة الاستقبال الواسعة المفروشة بأفخر الأثاث، والمزينة بلوحات عالمية باهظة الأثمان، أحاطتْ بها العديد من التحف الفنية الثمينة المرصوفة بإتقان وتناسق بديع دلَّ على الرقي والغنى.

أحسَّتْ ببرودة الهواء الربيعي المفعم بأريج القداح وهو يداعب وجنتيها الذابلتين، ويتخلل خصلات شعرها الأشيب المنسلة من تحت الحجاب الداكن الذي لفته بروّية.

- ستمطر.

همست بذلك وهي تسير باتجاه النافذة المطلة على الشارع المكتحل بالأنوار المتكئة على عكاكيزها المتراصفة مع طول الرصيف، أغلقت النافذة وأسدلت ستارتها، شغَّلتْ التلفاز، عادتْ لتجلس في نفس مكانها على الكرسي الواسع الوثير قبالة التلفاز، نظرتْ إلى ساعتها اليدوية متجاهلة تلك الساعة الكبيرة المثبتة على الحائط، والتي جلبها زوجها الراحل من (سويسرا).

- إنها التاسعة... وقت الأخبار.

هتفتْ، قلّبت قنوات التلفاز بحثاً عن المحطة الخبرية، طالعتْ باهتمامٍ بالغٍ شريطَ الأخبار الذي ينساب أسفل الشاشة، رفعتْ صوت المذيع الأنيق الماثل أمامها وهو لا يبرح ينقل الأخبار بسلاسة وتشويق كمن حفظها عن ظهر قلب، اختلط صوت المذيع بصوت بشري منبعث من داخل الغرفة:

- مرحباً يا أمي.

قال ذلك وهو يقبل رأسها ثم يجلس على الأريكة المجاورة لها.

ردت بحنان:

- أهلاً يا بني.

أخرج علبة سجائر، أشعل سيجارة وبدأ ينفث دخانها في أرجاء الغرفة.

سألها مازحاً وهو يحدق صوب التلفاز:

- ما الشيء الذي استفدتِه من سماع الأخبار؟

أجابته وهي تخفي تحت ابتسامتها بقايا ألم قديم:

- أعتقد أنها أفضل من التدخين.

شرعا يضحكان، سألته بابتسامة أظهرت عمق تجاعيد وجهها:

- أ لا زلت مُصرًّاً على السفر؟

أجاب بحسمٍ وهو ينفث الدخان:

- نعم يا أمي.

صمتتْ، غطَّتْ وجهها سحابة حزن وقالتْ:

- ستترك أمك العجوز المتعبة لوحدها في هذا المنزل، أ ليس كذلك؟

ردَّ عليها مواسياً:

- لا يا أمي لا تقولي هذا... محال أن أتركك.

التف بجذعه نحوها وأضاف:

- كما تعلمين إن هذه الصفقة مهمة لشركتنا، وحالما أنجزها مع الشركة الكندية سأعود فوراً.

صمتا بُرهة، سألها محاولاً أن يشتت سحابة الصمت:

- هل تريدين أن أحضر لك خادمة أخرى؟

أجابته بدفء وحنان، ملمِّحةً:

- لا يا بني إن خادمتنا لم تقصر معي في شيء، كما أنك تعرف ما أريد.

رد عليها بشيء من الضجر:

- أماه... إن كنتِ تقصدين الزواج من تلك الفتاة فلا!

حاولتْ إقناعه:

- لمَ يا ولدي؟ فهي جميلة وطيبة المعشر والأخلاق، وإضافة لذلك هي ابنة خالتك!

أجاب بحسم:

- أمي... لقد قلتُ لك مسبقاً بأنني غير مقتنع بها! أعلم أنها فاتنة وجميلة وقلبها طيب وأنا أحترمها كثيراً، ولكن صدقيني لستُ مقتنعاً بأن تكون (سلمى) زوجتي!

سكتتْ وقد عاودها الوجوم، قبَّلَ رأسها مرة ثانية وهو يحاول أن يبعث في نفسها البهجة مصرِّحاً:

- أمي أعدك بأن أتزوجها حالما أعود.

جالت ببصرها نحوه وفي عينيها دمعة حائرة، سألته بلهفة:

- أحقاً يا بني؟ أ حقاً ما تقول يا (سامي)؟

لم يرد عليها، نهض من مكانه سائراً صوب النافذة، فكر طويلاً وهو يمتصُّ آخر جرعة نيكوتين من سيجارته التي شارفت على الانطفاء، نفث الدخان مع آهةٍ عميقةٍ من جوفه، أحس أنه تسرَّع في اتخاذ قرار كهذا وهو يجول ببصره نحو المصابيح الممتدة على رصيف الشارع، شعر بالتردد، فكَّر وقد اجتاحه قلق مبهمٌ.

جمدَ بصرها عليه طويلا تنتظر منه الإجابة، التفت إليها، سألَتْه:

- أخبرني يا بني... هل أنت واثق مما قلت؟

فكر في الإمر بإيجابية، بدأ يشعر بثقة في نفسه. أخيراً وقف بثبات كصخرة عظيمة تجابه أمواج البحار وقد اتخذ قراره بأن لا يُغضب والدته أو يُحزنها. أراد أن يمسح عن وجهها سحابة الأحزان التي رسمها الزمن، لعلَّه على الأقل يجعلها تشعر ببعض السعادة؛ لذلك أجابها بشيء من الثقة:

- نعم يا أمي، سأتزوج سلمى.

نهضت باندهاش والدموع الساخنة تتسارع على وجنتيها الباردتين، فكم حاولتْ من قبل إقناعه بالزواج من

ابنة خالته لكن محاولاتها باءت بالفشل، وها هو الآن يفاجئها بهذا الخبر المفرح، يا للسعادة الغامرة!

عانقته بحرارة ممزوجة بدفء الأمومة، بكتْ فرحاً، مسحتْ دموعها بمنديلها، نادتْ على الخادمة فجاءتْ مسرعة وهي تقول بوقار:

- نعم يا سيدتي.

ردَّت عليها أم سامي بصوت متحشرج:

- أحضري قدحين من الماء.

ثم أردفت:

- لا تنسي بأن توقظيني في تمام الخامسة، فغداً صباحاً سيسافر سامي إلى (كندا).

أومأت الخادمة برأسها باحترام، ردّتْ باضطراب وتلعثم وهي تغادر:

- حاضر يا سيدتي.

عادتْ مسرعة تحمل قدحين زجاجيين مذهبين مملوئين بالماء، شرب سامي نصف القدح، مسح شفتيه بيده، التفت إلى والدته قائلاً:

- سأخلد إلى النوم... تصبحين على خير يا أماه.

ردت بابتسامة هادئة:

- تصبح على خير يا ولدي.

دلف إلى حجرة نومه ناسياً أن ينظف أسنانه، فيما بقيت هي جالسة تتابع أخبار العالم على قناتها المفضلة، تغمرها فرحة عارمة إذ أن ابنها سيتزوج تلك العروس الجميلة، وسيملآن المنزل بزقزقة العصافير وعبير الورود، كانت ولا زالت تحلم بذلك الحلم الجميل منذ أن كان سامي طفلاً صغيراً. كما أنها لا زالت مهتمة بمتابعة الأخبار وما يدور من أحداث على سطح المعمورة منذ أن عُيِّنَ زوجها الراحل سفيراً في (إيطاليا)، واعتاد أن يأخذها معه في زيارات رسمية إلى دول عدة لتقابل شخصيات سياسية. لم تكن سيدة عادية، بل كان لديها إضافة لأموالها الطائلة شهادة (ماجستير) في (علم الاقتصاد) أكسبتها معرفة تامة باقتصاد الدول. كانت تصغي بتمعنٍ للأنباء التي يلقيها المذيع بسلاسة، وبعد أن انتهت نشرتا الأخبار السياسية والاقتصادية اختفى وجه المذيع وظهرت مذيعة جديدة لتلقي النشرة الجوية بصوتها الرخيم؛ ابتداءً من درجات الحرارة المتوقعة إلى الأمطار والرطوبة إلى الرياح، وهنا ذُهِلَتْ أم سامي وبدا عليها القلق، عندما أخبرتْ المذيعة أن إعصاراً هائلاً قد يضرب منطقة الشرق الأوسط والبحر الأحمر قادماً من آسيا خلال الساعات القليلة المقبلة.

اضطربت، بدأت دقات قلبها بالتسارع، أصابها الهلع، تمتمت:

- ماذا أفعل لأمنعه عن السفر؟

ازداد اضطرابها وقد افترس الخوف أعماقها، نهضت من مكانها، ظلتْ تسير في الحجرة جيئة وذهاباً مثل رقَّاص الساعة المثبتة على الحائط التي أشارتْ إلى الحادية عشرة.

شعرت بضيق وقلق شديدين، أطفأتْ التلفاز، تزاحمتْ الأفكار المخيفة في رأسها ولعبتْ بها الظنون وهي تتذكر حادث وفاة زوجها عندما سقطتْ طيارة المسافرين بسب إعصار هائل، فجاءها خبر وفاته كالصاعقة، تاركاً في قلبها جرحاً غائراً أبقاها حبيسة أحزانها وآلامها لسنوات، لم يغفُ لها جفن ولم تقر لها عين، بيد أنها استطاعت أن تتمالك نفسها وتنهض من جديد لتُسخِّر ما بقي من حياتها وفاءً لزوجها ورعاية لولدها الذي أسقته حناناً وأطعمته محبة حتى غدا رجلاً ناضجاً تنظر إليه بفرحة غامرة؛ كالفلاح حين يرى غرسه وقد أصبح شجرة ظليلة خضراء مثمرة.

عادتْ إلى ذهنها الوساوس والظنون واستبد بها القلق وتغلغل الأرق إلى عينيها الغائرتين وبان عليها الشحوب، ردَّدتْ:

- لا، لن يذهب ابني عني، لن يسلبه مني هذا الإعصار كما سلبني أباه!

دلفتْ إلى غرفتها مسرعةً، فتحتْ أحد أدراج الخزانة، أخذت مجموعة مفاتيح، عادتْ لتقفل باب المنزل هتفتْ وقد هدأ روعها:

- هكذا لن يستطيع الخروج!

نادت على الخادمة التي كانت تغسل الأطباق في المطبخ فجاءتْ مهرولة تردِّد أكثر الجمل قولاً لديها:

- نعم يا سيدتي.

نبّهتها أم سامي:

- اسمعي، لقد تأجل موعد سفر سامي إلى إشعار آخر، فلا توقظيني.

أردفت وهي تهدِّد:

- وإياك إياك أن توقظيه، أفهمتِ؟

أجابت الخادمة بإذعان وارتباك واضحين:

- حاضر يا سيدتي... حاضر يا سيدتي.

رجعتْ أم سامي إلى حجرتها، وضعتْ المفاتيح تحت وسادتها وأطفأتْ أنوار الغرفة، انسلتْ تحت فراشها، أغمضت عينيها وهي تشعر بقدرٍ من الطمأنينة، بيدَ أنَّ الأرق الذي انتابها جعلها تبتلع حبة (فاليوم) متبوعة بقليل من الماء لتغط في نوم عميق.

في الصباح التالي بدا الجو جميلاً مشمساً بعد أن انهمرت الأمطار بشدة في الليلة الماضية، استيقظتْ أم سامي، نهضتْ من فراشها بتثاقل، سارت متجهة نحو غرفة ولدها كي توقظه بعد ما تأكدتْ أنَّ الساعة هي التاسعة. همست في نفسها: "**سيغضب لأنني لم أوقظه**"، ردَّدتْ مبتسمة: "**لئن غضب اليوم فسيهدأ غداً**".

دخلت حجرته مبتسمة، نادته بحنانها المعهود:

- سامي... استيقظ... استيقظ يا عزيزي.

لم يستيقظ، وضعتْ يدها على كتفه كي توقظه فلم يُفق!

انتابها القلق، وضعتْ كفها على جبهته فوجدتها باردة كقطعة ثلج. حاولتْ أن تتحسس نبضه، وقد افترس الخوفُ أعماقها، حاولتْ أن تسمع دقات قلبه غير أنها لم تفلح بشيء.

أيقنتْ أنه رحل إلى الأبد؛ فأطلقت صرخة مدوية معلنةً أنها قد فقدتْ كل شيء.

- ١٤ -

الكلُّ يستحق

أتجول الآن في الحديقة العامة العامرة بأهلها، أصبحتُ أشعر بالارتياح كلما مررتُ بهذا المكان المزدحم الهادئ في ذات الوقت.

كعادتي أسلم عليهم كل مرة:

- مرحباً.

لا أحد يرد، فأردد في نفسي: **"لا بأس... ربما لا يحبون الإزعاج."**، إزعاج! هل أصبح إلقاء التحية إزعاجاً؟ أجيب نفسي: **"قد يعشقون الصمت برغم أن الصمت قد لا يعني السكوت، فكثيرون هم من يئنون أو يزغردون بصمت."**.

ما يؤرقني أحياناً أنهم بدأوا بالاستيلاء على أرض الحديقة شيئاً فشيئاً، وبدأوا يزدادون يوماً بعد يوم، قد يكون ذلك استحقاقهم لبلوغهم السن المقررة. لا بأس فأنا على يقين بأن من سيرحلون بعدي سيهدونني قطعة أرض كبقية المستحقين، وسيزودونني بعقد رسمي مطبوع

عليه اسمي وعنواني وتاريخ استلامي لهذه الأرض التي طالما عجزتُ عن شرائها، ولن يهمني في أي مقبرة ستكون.

- ١٥ -

حامل الأثقال

في المطبخ وبعد تناولهما الغداء قالت له زوجته البدينة:

- احملني يا عزيزي إلى الغرفة فأنا متعبة جداً لقد أكلت كثيراً ولا أستطيع الحركة.

حاول حملها فلم يستطع؛ اعتذر منها.

بعد شهرين حملها بين ذراعيه، ودار بها في أرجاء المنزل، دُهشت قائلة:

- كيف استطعت حملي يا عزيزي وقد ازددتُ تسعة كيلوغرامات خلال هذه المدة؟

أجابها بحنان:

- تدّربتُ في قاعةٍ رياضية على رفع الأوزان الثقيلة، كل هذا لأنني أحبك.

أردفَ ممازحاً:

- ألا تعلمين أن وراء كل رجل عظيم امرأة بدينة؟!.

- ١٦ -

سوءُ فهمٍ

كُلَّما ردَّ الراكبُ على مُكالمةٍ هاتفيةٍ وضعَ السائقُ يدهُ على أنفه

استغربَ الراكبُ من هذا التصرُّفِ فالتفتَ الى السائقِ الذي يجلسُ بجانبهِ قائلاً :

- هل تضايقتَ من مكالماتي الهاتفية ؟

أجاب :

-لا ... مُطلقاً ...إنَّما لدي تحسُّسٌ من الروائحِ

يبدو أنَّ الراكبَ لمْ يفهمْ قصدَهُ ، فرَفَعَ الهاتفَ ليُجيبَ على مكالمةٍ أخرى !

- ١٧ -

خَفُيفُ الظِّلِّ

كانَ خفيفَ الظِّلِّ ، لدرجةِ أنَّهُ لمْ يَشَأ أنْ يُثْقِلَ عَلى الآخرينَ حتَّى النِّهايةِ ، فَسَكَنَ قُربَ المَقْبَرةِ !

الفهرس

تقديم ٧
تخمة من فراغ ١١
البقال (سين) ١٣
چات ١٥
بياض الثلج والأقزام السبعة ١٧
الدخان الكثيف ١٩
رسالة وداع ٢٣
شاعر مجهول ٢٦
مكالمة فائتة ٢٧
زكام ٢٩
لوحة ٣٢
خضيِّر ٣٣
الدرس الأول ٣٩
الإعصار ٤٦

الكلُّ يستحق ٥٧
حامل الأثقال ٥٩
سوءُ فهمٍ ٦١
خَفُيفُ الظِّلِّ ٦٢

الكاتب:

- حقي إسماعيل سلطان
- كاتب و شاعر و صيدلي
- من مواليد العراق /كركوك ١٩٨٥